الصباح الإسلامية
09
العدد 1674 - السنة السادسة
الجمعة 21 ذي القعدة 1434 - الموافق 27 سبتمبر 2013
Friday 27 September 2013 - No.1674 - 6th Year

شبهات وردود حول تعدد الزوجات في الإسلام

تساؤلات يطرحها المشككون في دين الله على انها شبهات قد تجد قبولا عند من لا يعرف حقيقة الشريعة الإسلامية الغراء ومن هذه الشبهات:

لماذا يبيح الشرع التعدد للرجال ولا يبيحه للنساء؟

الشريعة أباحت للمسلم أربع نسوة في حين كان للرسول صلى الله عليه وسلم تسع من النساء لماذا؟

ونحن نرد عليهم بتساؤلين: هل جاء الإسلام بالتعدد أم انه كان موجودا قبل الإسلام؟

هل التعدد فيه ظلم للمرأة وهضم لحقوقها؟أم انه صيانة لها وحفظ لديمومة الحياة الزوجية؟

إن أعداء الإسلام لما عجزوا عن مواجهة الإسلام بالطرق والأساليب المشروعة لجأوا إلى الأبواب الخلفية وراحوا يطعنون في الإسلام وتشريعاته التي تعتبر هي إعجازا وليست شبهات وهو بفضل الله يوما بعد يوم يثبت أنه نصر للإسلام وزيادة في اتباعه عن طريق من يشككون في المعجزة الخالدة. قال الله تعالى: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون».

ومن جملة هذه الشبهات: إن نظام التعدد يكاد يكون مقصورا على الأمم التي تدين بالإسلام، وأنه لا ينتشر إلا في الشعوب المتأخرة في الحضارة.

نظام التعدد هو مسايرة لدواعي الشهوات عند الرجال، وأنه إهدار لكرامة المرأة وإجحاف بحقوقها.

انه إهدار لمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة الذي يقتضي أن يكون الزوج خالصا لزوجته كما هي خالصة له.

ان تعدد الزوجات مدعاة للتنازع الدائم بين الزوج وزوجاته، وبين الزوجات بعضهن مع بعض، كما أنه مصدر للشقاق والتنافر مما يؤدي إلى إشاعة الفوضى والاضطراب في حياة الأسر، ويعيش الأولاد في جو فاسد.

والرد على هذه الشبهة مثل شبهات كثيرة هي في الأصل ليست بشبهات ولكنها عند تدقيق النظر فيها هي محض فضل ونعمة من العلي القدير على هذه الأمة التي يزيد الحاقدون عليها يوما بعد يوم وكلما ازداد حقدهم علا شأنها.

إن مسألة إباحة تعدد الزوجات كانت سائدة من قبل ظهور الإسلام في شعوب كثيرة.. يقول علي عبد الواحد في كتابه «المرأة في القرآن»: «فالحقيقة ان هذا النظام كان سائدا من قبل ظهور الإسلام في شعوب كثيرة منها الإسرائيليون، العرب، الهنود، البرهميون، الإيرانيون، الزادشتيون، وشعوب الصقالبة أو السلافيون التي ينتمي إليها معظم أهل البلاد التي تسميها روسيا وليتوانيا، وأستونيا، وبولونيا.. وعند بعض الشعوب الجرمانية والسكسونية»..

التعدد في الديانة اليهودية: تبيح تعدد الزوجات بدون عدد محدود، ولم يرد في التوراة نهي عن ذلك، وإنما ورد أنه مباح وماثور عن أنبيائهم فقد ورد في العهد القديم في سفر الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر، فقرة رقم (3) «وكانت له سبع مئة من السيدات وثلاث مئة من السراري».

سفر التكوين، الإصحاح الثامن والعشرون، فقرة (9).. فذهب عيسو إلى إسماعيل وأخذ محلة بنت إسماعيل بن إبراهيم أخت نيابوت زوجة له على نسائه.

وعند الحديث عن يعقوب بن إسحاق يذكر سفر التكوين، الإصحاح الثاني والثلاثون، فقرة (22) «.. ثم قام في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر».. وقد ذكر في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يؤكد التعدد في الديانة اليهودية فقد روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كلهن تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله». (البخاري ومسلم في باب الاستثناء).

أما في الديانة النصرانية فإنه لم يرد في الأناجيل نص يمنع التعدد، بل ورد في بعض رسائل بولس ما يفيد أن التعدد جائز فقد قال: «يلزم أن يكون الأسقف زوجا لزوجة واحدة».

يذكر العقاد في كتابه المرأة في القرآن: أن وستر مارك العالم الثقة في تاريخ الزواج يقول: «إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر، وكان يتكرر كثيرا في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة».

ومما يعرف عن مارتن لوثر زعيم الإنجيليين أنه أول من أقر تعدد الزوجات واحتج على كراهية الكهنة للزواج لدرجة أنه تخلى عن رهبنته وتزوج من راهبة، وكل هذا ليرسم طريقا جديدا في التفكير حتى أصبح يتكلم في مناسبات شتى عن تعدد الزواج.

ويقول د.مصطفى السباعي في كتابه «المرأة بين الفقه والقانون»: «المسيحيون في افريقيا يتخذون تعدد الزوجات وسيلة لنشر رسالتهم التبشيرية بعد أن وجدت الإرساليات التبشيرية نفسها أمام واقع اجتماعي وهو تعدد الزوجات لدى الإفريقيين الوثنيين، ورأوا الإصرار على منع التعدد يحول بينهم وبين الدخول في النصرانية، فنادوا بوجوب السماح للإفريقيين المسيحيين بالتعدد إلى غير حد».

ويقول أيضاً – رحمه الله – في نفس الكتاب: والشعوب الغربية النصرانية وجدت نفسها تجاه زيادة في عدد النساء على الرجال – وبخاصة بعد الحربين العالميتين – إزاء مشكلة اجتماعية خطيرة، لاتزال تتخبط في إيجاد الحل المناسب، وقد كان من بين الحلول تعدد الزوجات.

في عام 1948 عقد مؤتمر الشباب في ميونخ بألمانيا، وبحث مشكلة زيادة النساء وكانت النتيجة أن أقرت اللجنة توصية المؤتمر بإباحة تعدد الزوجات.

يقول جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: إن مبدأ نظام تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به ويزيد الأمم ارتباطاً ويمنح المرأة احتراماً وسعادة لم ترهما في أوروبا.

التعدد في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام: فحدث ولا حرج حيث كان التعدد بغير قيود ولا حدود ففي سنن أبي داود عن الحارث بن قيس قال: أسلمت وعندي ثماني نسوة فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اختر منهن أربعاً».

من كل ما سبق يتبين أن التعدد لم يكن مقصورا على الدين الإسلامي لكن لماذا أباح الإسلام هذه الرخصة؟

يجيبنا عن هذا السؤال صاحب تفسير الظلال فيقول: ان الإسلام نظام واقعي وإيجابي يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه، ويتوافق مع واقعه وضروراته ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة في شتى البقاع وشتى الأزمان وشتى الأحوال.

فكيف نعالج هذا الواقع، الذي يقع ويتكرر وقوعه بنسب مختلفة هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار؟ نعالجه بهز الكتفين؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه حسب الظروف والمصادفات؟ ولابد إذن من نظام، ولابد إذن من إجراء.

عندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة: أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة واحدة زواجا شرعيا ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر فلا يعرفن الرجل إلا خليلا في الحرام.

أن يتزوج الرجال الصالحون امرأة أو أكثر وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل، زوجة شريفة، في وضح النور لا خليلة في الحرام والظلام.

الاحتمال الأول: ضد الفطرة وضد الطاقة ولا يندفع هذا باشتغال المرأة عن الرجل بالعمل والكسب كما يدعي البعض فهناك مطالب للجسد والغريزة كما هناك مطالب للروح والعقل من السكن والأنس بالعشير.

الاحتمال الثاني: ضد اتجاه الإسلام النظيف وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف، وضد كرامة المرأة والذين لا يكترثون أن تشيع الفاحشة في المجتمع هم أنفسهم الذين يتعالمون على الله ويتطاولون على شريعته.

الاحتمال الثالث: هو الذي يختاره الإسلام، يختاره رخصة مقيدة لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه هز الكتفين

فنحن نرى أن فترة إخصاب الرجل تمتد حتى السبعين وللمرأة تقف عند الخمسين فهناك في المتوسط عشرون سنة من الإخصاب في حياة الرجل لا مقابل لها عند المرأة ومن الحالات الواقعية ما نراه أحياناً من رغبة الزوج في أداء الوظيفة الفطرية، مع رغبة الزوجة عنها مع رغبة كليهما في امتداد العشرة الزوجية وكراهية الانفصال فكيف نواجه هذه الحالات؟

نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة:

الاحتمال الأول: أن نكبت الرجل ونصده عن مزاولة نشاطه الفطري بقوة التشريع وقوة السلطان ونقول له عيب يا رجل ان هذا لا يليق ولا يتفق مع حق المرأة.

الاحتمال الثاني: أن نطلق هذا الرجل يسافح من يشاء من النساء.

الاحتمال الثالث: أن نبيح لهذا الرجل التعدد ونتوقى طلاق الزوجة الأولى.

أيهم تختار؟؟

بالطبع هو الاختيار الثالث الذي قال به الإسلام ومن كل ما سبق يتبين لنا أن ما يحاولون الطعن به هو موطن إعجاز ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

صور من حياة النبي صلى الله عليه وسلم

حياة الأنبياء عليهم السلام حياةٌ بشرية كاملة، تجمع بين الجوانب الإنسانيّة والخصائص الرسالية، وشأن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كشأن اخوانه من الانبياء ممن سبقه في النبوّة والرسالة، فبشريّته عليه الصلاة والسلام حاضرةٌ في سيرته، يُدركها كل من قرأها، فتراه كغيره من الناس يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويسعى إلى الرزق، كما قال الله تعالى: «وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» (الفرقان: 7).

وبين يدينا حديث عن أحد الجوانب البشريّة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي علاقته صلى الله عليه وسلم بقضايا الكسب والمعاش، والبيع والشراء، فقد بدأت تلك العلاقة في سنّ مبكرة ومرّت بمراحل عديدة، فكان عليه الصلاة والسلام يرعى الغنم في بني سعد وهو غلامٌ مع إخوانه من الرضاعة، مقابل شيءٍ يسير من المال.

ومع مرور الأيّام استفاد النبي صلى الله عليه وسلم من قربه من عمّه أبي طالب آراءه وخبرته، فتعلّم منه فنون التجارة وأساليبها، فما بلغ سنّ الشباب إلا وقد حاز شهرة واسعة في مكة وما حولها، حتى سمعت به خديجة رضي اللهُ عنها، فتعاقدت معه على التجارة بمالها، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشام مع غلامها ميسرة، وعاد لها بربح وفير، وسرعان ما توطدت العلاقة التجارية بينهما حتى تُوّجت بالزواج، وظل الأمر كذلك إلى أن أكرم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم بالرّسالة.

وفي تلك الأثناء كانت للنبي صلى الله عليه وسلم شراكاتٌ تجاريّة أخرى مع بعض أهل مكّة، يشير إلى ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد أن السائب بن أبي السائب رضي الله عنه كان شريك النبي صلى الله عليه وسلم في أول الإسلام في التجارة، فلما كان يوم الفتح رآه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: «قال مرحبا بأخي وشريكي».

أما بعد نزول الوحي فقد كان شراؤه صلى الله عليه وسلم أكثر من بيعه، لما تتطلبه أعباء الرسالة من متابعة وتفرّغ لشؤون الدعوة وتوجيه الناس والفصل بينهم، وغير ذلك من الأمور المهمّة.

ومن الصور التي حُفظت في بيع النبي صلى الله عليه وسلم ما حدّث به جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رجلا أراد عتق غلام له، ثم احتاج للمال، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يفك عنه حاجته فعرض ذلك الغلام للبيع، فاشتراه نعيم بن عبد الله رضي الله عنه بثمانمئة درهم، ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم تلك الدراهم إلى صاحب العبد، والحديث رواه البخاري ومسلم.

وفيما يتعلق بشرائه صلى الله عليه وسلم فهناك العديد من المواقف التي تدل على أنه كان يباشر ذلك بنفسه، أو يوكل ذلك إلى أحد من أصحابه، فمن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى طعاما من يهودي إلى أجل، ورهنه درعا من حديد، رواه البخاري.

وفي طريق العودة من إحدى الغزوات اشترى النبي صلى الله عليه وسلم من جابر بن عبدالله رضي الله عنه جملاً كان يركبه، وعند وصولهم إلى المدينة أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم الثمن وزاده، ثم أرجع إليه جمله، والقصّة بتمامها في الصحيحين.

وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم عروة بن أبي الجعد البارقي رضي الله عنه دينارا ليشتري له أضحية، فاشترى عروة شاتين بالثمن ثم باع إحداهما بدينار، ورجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشاة ودينار، فدعا له بالبركة في بيعه، رواه أبو داود.

وربما احتاج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المال فيقترض أو يرهن شيئا عنده من سلاح ونحوه، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير، رواه البخاري.

وتعاقد النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل خيبر لممارسة النشاط الزراعي لصالح المسلمين، مقابل أن يأخذوا شطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع، رواه مسلم.

وقد أسّس النبي صلى الله عليه وسلم منهجاً متكاملاً يسير عليه الناس في تعاملاتهم، فحرّم جملة من المعاملات التي فيها ضررٌ أو غبنٌ، كالتعامل بالربا، وبيع الغرر، وبيع العينة، والتجارة بالمحرّمات، وبيّن أهميّة التقابض بين البائع والمشتري، وحدّد أنواع الخيار عند الرغبة في التراجع عن الصفقة، إلى غير ذلك من الأسس والضوابط المقرّرة في سنته.

وبالجملة فإن كل ما أوردناه من أمثلة تدور حول محور واحد، يتلخص في أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يعلم أمته أن السعي في الرزق وتحصيل القوت لا يتنافى مع الإقبال على الآخرة، بل هو مطلبٌ من مطالبها، علاوة على كونه سببا في نهوض الأمة ورقيّها، لتنال بذلك مكانة سامية بين الأمم.

ما ادخره الله للصابرين من ثواب جزيل يفوق ضروب العبادات الأخرى

كرم الاسلام المنتصبين لأعراض الدنيا وواسى المتعبين مواساة تطمئن بالهم وتخفف آلامهم. «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله، ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها لا يصيبها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة». «فالمؤمن السارب في الحياة هدف لمشاكلها الجمة، أما العاجز الهارب من الميدان فماذا يصيبه؟! وذاك سر قوله صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرا، يصب منه» وقوله: «اذا أحب الله قوما ابتلاهم. فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط» فالمتعرض لآلام الحياة، يدافعها وتدافعه، ترفع عند الله درجات من المنهزم القابع بعيدا، لا يخشى شيئا ولا يخشاه شيء.

وما ادخره الله لأولئك العانين الصابرين يفوق ما ادخره لضروب العبادات الأخرى من ثواب جزيل: «يود أهل العافية يوم القيامة، حين يُعطى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض». ومن الغرائب أن بعض الناس فهم أن الإسلام يمجد الآلام لذاتها ويكرم الأوجاع والأوصاب لأنها أهل التكريم والمودة. وهذا خطأ بعيد، فعن أنس بن مالك قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيخا يهادي بين ابنيه، فقال: ما بال هذا؟ قالوا نذر أن يمشي! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان الله عن تعذيب هذ لغني ابن عباس أن أخت عقبة نذرت الحج ماشية وذكر عقبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنها لا تطيق ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان الله لغني عن مشي أختك، فتركب ولتهد بدنة». وقال الله عز وجل: «ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم». انما يحمد الإسلام لأهل البلوى وأصحاب المتاعب رباطة جأشهم وحسن يقينهم، وهو اذ يذكر لهم الأسقام التي يعانونها، أو الضوائق التي يواجهونها، لا يعنيه منها إلا ما تنطوي عليه من امتحان يجب اجتيازه بقوة وتسليم، لا باسترخاء وتسخط على القدر: ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على امرأة مريضة فوجدها تلعن الداء وتسب الحمى، فكره منها هذا المسلك وقال لها مواسيا: «انها أي الحمى تذهب خطايا بني آدم كما يُذهب الكير خبث الحديد». فهل معنى ذلك أن تربي جراثيم المرض ونهديها الى من نحب ؟. كذلك يريد بعض الناس أن يفهم.. والجنون فنون؟.

والانسان في ابان المعركة قد يمرغ في التراب، وقد يضطره الحرج الى اقتحام المذاهب المعنتة، ولكنه في تقلبه على الخشن من أحوال الحياة لا يزيد من الله الا قربا، ما دام وثيق الايمان، رفيع الرأس. ومن الخلط أن يحسب المسلم تلاحق الأذى عليه آية على نسيان الله له، وابعاده من رحمته، لكن هذا الفهم ساد بين المسلمين للأسف في عصور الانحلال والاضمحلال، وقد أسلفنا القول ان مصاعب الحياة تتمشى مع همم الرجال علوا وهبوطا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم. «ذبب هذا لغني» وأمره أن يركب. فهو نبي تربى في حجور أنبياء، وتحدر من شجرة عريقة، وهو كريم على الله بالاجتباء والرسالة.

فانظر الى هذا الكريم كيف قضى مراحل حياته الأولى وهو يخرج من ضائقة ليدخل في أختها فقد أمه وهو طفل، ثم تآمر عليه اخوته فاختطفوه من أحضان أبيه ورموا به في البئر، ليلقى في غيابتها مصيره المجهول واستنقذه السيارة ليمتلكوه عبدا، ثم يبيعوه في سوق الرقيق بثمن بخس دراهم معدودة. وابتاعه ملك مصر، فما ان آواه في القصر حتى تعرض للدسائس الماكرة، فاتهم وهو العفيف الحصن، بأنه يبغي السوء. ومع ظهور براءته فقد طرح في السجن مع الأشقياء لا أياما أو شهورا، بل بضع سنين!! ولو أن شخصا آخر نظر الى ماضيه فوجده مثقلا بالآلام على هذا النحو لضاق بالأرض وتنكر للسماء، بيد أن يوسف الصديق بقي متألق اليقين وراء جدران السجن يذكر بالله من جهلوه، ويبصر بفضله من جحدوه. «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون». وذلك شأن أولي الفضل من الناس، لا يفقدون صفاء دينهم ان فقدوا صفاء دنياهم، ولا يهونون أمام أنفسهم لنكبة حلت بهم.. وانك لترى شاعرا من الطامحين الى أمجاد الدنيا يغالب الحرمان بالمغالاة في تفخيم نفسه فيقول مفتخرا بهمومه: أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن وما رأيناه في سير الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين يؤكد أن عظم المنزلة مع ثقل الأحمال ومعاناة الصعاب. وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان العبد اذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل، ابتلاه الله في جسده أو ماله، أو في ولده. ثم صبر على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل».